## عـــروض موقعة

# أم كلثوم كوكب الشرق

عرض وتقديم

**محمد حمدى**

مدير مكتبة القاهرة الكبرى

مستشار اليونسكو للتوثيق الإعلامى

الأمين العام للجمعية المصرية للمكتبات والمعلومات

عضو لجنة الكتاب والنشر بالمجلس الأعلى للثقافة

عضو المجمع العلمى المصرى

**بوديس، إيزابيل صياح.**

أم كلثوم كوكب الشرق/ تأليف إيزابيل صياح بوديس ؛ ترجمة سونيا محمود نجا ؛ تحرير ومراجعة أحمد عنتر مصطفى ؛ مع مقدمتين للسيد الرئيس محمد حسنى مبارك والفنان عمر الشريف .ـ ط١ . ـ القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨ .

٣٤٠ص ؛ ٢٤سم .

تدمك ٥- ٧٩١- ٤٣٧- ٩٧٧

يتناول هذا الكتاب حياة كوكب الشرق أم كلثوم وأسطورتها الرائعة ، ويروى قصة نشأتها ومسيرتها الفنية ؛ وهو من أحدث الكتب التى أصدرها المركز القومى للترجمة برئاسة د . جابر عصفور ، ويحمل العدد رقم ١٢٥٠ ، ويعد امتدادا لسلسلة الأعمال المترجمة التى كان يصدرها المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة حتى وصلت إلى العدد ١١٠٠ قبل أن يستقل المركز القومى للترجمة ، بصدور القرار الجمهورى بإنشائه فى ١ / ٧ / ٢٠٠٧م ؛ حيث يواصل المركز نشر ترجمات لأعمال مختارة بعناية فائقة ، تستهدف نقل إنتاج فكرى عالمي وإتاحته للقارىء العربى ، بعدة لغات أجنبية منها ٢٧ لغة فى المرحلة الأولى للمشروع .

ويكتسب هذا الكتاب أهمية خاصة- وليس فقط لأنه يتناول سيرة سيدة الغناء العربى كوكب الشرق أم كلثوم- ولكن لأن الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية قد اختصه فى تقليد غير مسبوق بكتابة مقدمته ، إيماناً منه "إن ظاهرة أم كلثوم ، تلك الفنانة العظيمة التى كانت بالأمس سفيراً للفن وللوطنية المصرية ، ما زالت هامتها المهيبة عالية فى العالم العربى كله بل وفى عالم الثقافة ، فذكراها باقية فى كل مكان ، ومازال شدوها يعبر عن أعمق الأحاسيس الإنسانية ؛ السعادة ، والسلام ، والحب ، والإخلاص . ويسترسل رئيس الجمهورية فى سرد تفاصيل أهمية أم كلثوم كفنانة وكشخصية فى هذا الكتاب الذى أصدره المركز القومى للترجمة معرباً عن الفرنسية لكاتبة جزائرية أصبحت فرنسية بزواجها هى "إيزابيل صياح بوديس" . وقد قامت بترجمته سونيا محمود نجا .

يتضمن الكتاب مقدمة ثانية كتبها الفنان العالمى عمر الشريف ؛ وهى تلقى الضوء على شخصية أم كلثوم فيقول : "أم كلثوم داخل منزلها لم تكن الزعيمة التى تلقانا . . وإنما المصرية ابنة البلد التلقائية خفيفة الظل التى تجمع بين الفطنة والدعابة لكأنها شخصان : الزعيمة والفلاحة فى كيان واحد شديد الجاذبية ، وتأسرك الشادية وتؤثر فيك المرأة ولا تملك لفهمها إلا حب الاثنتين معاً .

وتقدم المؤلفة للكتاب بعد ذلك بتمهيد تصف فيه حياة أم كلثوم" بقرن من التاريخ والموسيقى ، أكثر من ثلاثين عاماً مرت على رحيلها وهى تتسيد الشارع والحياة . جمعت الشهرة إلى الخلود ، تربعت على قمة سلالة موسيقية . ."

. . . . ."واحتذاء بالنماذج الأسطورية من النساء المصريات نجدها تهدى وترشد وتتفتح على التقنيات الجديدة وعلى المؤثرات الأجنبية دون أن تنكر ما نشأت عليه وتعتقده" .

"جاءت إلى الحياة طفلة ، فقيرة ، فلاحة فى وطن تسيطر عليه قوى أجنبية كما كان الحال تماماً فى زمن كليوباترا آخر ملكات مصر" .

"ويعرف "نجيب محفوظ" الطرب بكونه ذروة الانفعال والحب فى القدرة والجمال" .

وتمضى المؤلفة عبر ثمانية فصول فى توثيق المسيرة الفنية لكوكب الشرق ، وتتناول حياتها الشخصية فى صياغة مجدولة بأجمل الحكايات عن فنها الرفيع ، مع لمحات من التطورات والأحداث السياسية والاجتماعية والمناخ الثقافى والفنى المصاحب لمشوار أم كلثوم .

ويكشف الكتاب عن دور أم كلثوم ، ولم يكن يقف عد حد إسعاد المستمعين بشدوها وإشاعة البهجة والمسرة فى قلوبهم ، وإنما كان دورها أعمق من ذلك بكثير من حيث السمو بأذواقهم والارتفاع بحسهم باختيارها الكلمات العذبة والمعانى الجادة والأشعار الرصينة الرفيعة التى نظمها فحول الشعراء المصريين والعرب وصاغها عمالقة الملحنين . كما كان صوت أم كلثوم معبراً بحق وصدق عن حبها وانتمائها لوطنها .

وقد حظيت أم كلثوم بالتعرف على عديد من عظماء الشعراء العرب ، وكبار الموسيقيين المبدعين طوال حياتها ، فضلاً عن كثير من المفكرين والرؤساء ، كل هذا الزخم المعطار ساعدها على أن تتوج خلال القرن العشرين- بمراحله الزمنية والفنية المختلفة - ملكة على عرش الغناء . فقد سايرت التطورات وجارت العصر ؛ حيث جسد رصيدها الفنى قرناً كاملاً من الفن . وواكبت جميع التطورات من الجرامفون إلى الراديو إلى السينما إلى التليفزيون ، وكل أنواع التكنولوجيا الحديثة .

وتم تكريمها من قبل عديد من القادة والملوك والرؤساء العرب فى مقدمتهم الرئيس جمال عبد الناصر وكانت بحق- إلى أن رحلت عام ١٩٧٥م وبعد رحيلها- أسطورة الشرق .

وعمدت المؤلفة إلى اختيار عناوين مشوقة مقتضبة وغير تقليدية لفصول الكتاب ، وتبدو ذات طابع صحفي غير معبر بالقدر الكافي عن المضمون الحقيقي لكل فصل .

فالفصل الأول يحمل عنوان "عندليب الدلتا" ويتضمن تفاصيل دقيقة عن قصة مولد أم كلثوم ونشأتها الرئيسية فى قرية "طماى الزهايرة" بمحافظة الدقهلية المصرية ، وفى أسرة فقيرة متواضعة الحال . يعمل أبوها الشيخ إبراهيم مقرئا للقرآن الكريم

بالمسجد ومنشدا فى المناسبات الدينية هو وابنه خالد .

والتحقت الطفلة أم كلثوم بكتاب القرية شأن أقرانها من الأطفال ، ولكن الأسرة عجزت – لشدة فقرها – عن استكمال تعليم أم كلثوم لأن ذلك كان يعنى قرشا إضافيا كل أسبوع .

وفى هذا الوقت المبكر ظهرت الموهبة الخارقة لهذه الطفلة التي حباها الله بحنجرة ذهبية وصوت جميل ، فما لبثت أن لحقت بأبيها وأخيها فى فريق الإنشاد الديني .

ولدى بلوغها السادسة عشرة توجت طماى الزهايرة والقرى المحيطة بها أم كلثوم "عندليب الدلتا" ، ونالت استحسان الأعيان والتجار فأقبلوا جميعا على طلبها لإحياء مناسباتهم .

أما الفصل الثانى فعنوانه "السيدة أم كلثوم" بدأ فى هذا الفصل ظهور أساتذة أم كلثوم ومعلميها – تباعا – فبرز الشيخ أبو العلا محمد عام ١٩٢٤ الذي قام بتعريف أم كلثوم بالشعر التقليدي ، وتلقت على يديه دروسا يومية فى فن الأدوار الغنائية ، ولحن لها مجموعة من الأغنيات . ثم ظهر الشيخ زكريا أحمد الذي كان يلحن لها الطقاطيق والأدوار ويدربها عليها بمنزلها .

وفى نفس عام ١٩٢٤م تعرفت أم كلثوم على شاعر الشباب الرومانسي أحمد رامي لدى عودته من باريس ، وأعطاها بعد ذلك الكلمات العذبة لمعظم أغانيها التي شدت بها .

ثم تعرفت أم كلثوم على الموسيقار محمد القصبجى الذي وافق على تعليمها فن العزف على العود .

وتولى كل من الشيخ أبو العلا محمد وأحمد رامي أمير الشعر ، أما الموسيقى فقد اضطلع بها زكريا أحمد ومحمد القصبجى .

وهكذا كانت أم كلثوم تتعلم على أيدي صفوة معلمي القاهرة ، وهو ما لم تحظَ به أية مطربة أخرى .

واختارت أم كلثوم للتخت المصاحب لها أفضل العازفين : محمد القصبجى للعود ، ومحمد العقاد للقانون ، وسامي الشوا للكمان ، ومحمود رحمي للإيقاع .

كان رامى يقضى أيام الاثنين فى منزل أم كلثوم فقد كانت دار الكتب المصرية التى يعمل بها تغلق أبوابها فى هذا اليوم ، وشرع رامى فى تعليم أم كلثوم اللغة الفرنسية وعلوم إنسانية أخرى .

أما القصبجى فكان يداوم على دروس العود ويلحن لها أغنيات متطورة لتسجلها على أسطوانات فى شركة أوديون .

وقبل أن ننهي عرض هذا الفصل الثانى قد نندهش عندما نلاحظ أنه يحمل عنوان السيدة أم كلثوم بينما يحمل الفصل الثالث (الثاني) عنوان الآنسة أم كلثوم . . فكيف تأتى السيدة قبل الآنسة . .

ولكن هذه الدهشة تزول عندما نقرأ فى فصل السيدة (الثانى) أن والد أم كلثوم فرض على "صديقه أحمد" متعهد الحفلات تقديم ابنته باسم "السيدة أم كلثوم" فقد وجد فى ذلك مراعاة أكبر للاحترام وتمييزا لها عن المطربات المتبرجات الحريصات على تسمية أنفسهم بالآنسات .

ويستعرض الفصل الثالث تطور فن أم كلثوم ، ويركز على أبرز ملامح هذا التطور بظهور الملحن رياض السنباطى ، الذى كان نقطة تحول هامة فى مسيرة أم كلثوم الفنيه . فقد قام بتلحين عدد كبير من أعذب أغانيها وأروعها ، ما بين أغنيات عاطفيه ووصفية ووطنية إضافة إلى القصائد الدينية . واتسمت ألحان رياض السنباطى بالتجديد مع الالتزام بالطابع الشرقى الأصيل .

ويرجع للسنباطى الفضل فى اتجاه أم كلثوم إلى الغناء الديني الرصين ، بما قدم لها من ألحان لعدد من القصائد لأمير الشعراء أحمد شوقى ابتداء من الأربعينيات مثل : سلو قلبى ، ونهج البوردة ، وولد الهدى .

ويحمل الفصل الرابع عنوان نشيد الأمل - وهو اسم فيلم أم كلثوم الثانى- ويتناول هذا الفصل اتجاه أم كلثوم إلى السينما ، تمثيلا وغناءاً ؛ حيث قدمت ستة أفلام ، وتسرد المؤلفة ظروف إنتاج هذه الأفلام ، وكيفية اختيار الموضوع والمؤلف والأبطال ، متداخلا مع عرض الأحداث والأوضاع السياسية والجوانب الشخصية التى تزامنت مع ظهور هذه الأفلام أو أوحت بفكرتها .

وأغفلت المؤلفة تحديد تواريخ ظهور هذه الأفلام بالرغم من أهمية تعريف القارىء بتوقيت هذه المحطة السينمائية فى مسيرة أم كلثوم الفنية . وتوثيقا لهذه التجربة نذكر أن أم كلثوم قدمت فيما بين عامى ١٩٣٦ م و١٩٤٧ م ستة أفلام هى :

١- وداد (١٩٣٦م) .

٢- نشيد الأمل (١٩٣٧م) .

٣- دنانير (١٩٤٠م) .

٤ - عايدة ( ١٩٤٢م) .

٥- سلامة ( ١٩٤٥م) .

٦- فاطمة (١٩٤٧م) .

وبقدر ما لقيت الأغنيات التى قدمتها أم كلثوم فى الأفلام من نجاح ، إلا أنها لم تكن راضية تماما عن مقدرتها على التمثيل السينمائي .

وتضمن الفصل الخامس - وعنوانه كوكب الشرق - وصفاً للجو السياسي فى أعقاب حرب فلسطين ١٩٤٨م وغناء أم كلثوم للجنود العائدين ,ثم قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، تقديم أم كلثوم الأغنيات الوطنية مع بداية الثورة :مصر التى فى خاطري وفى فمى أحبها من كل روحي ودمى .

وعلى الجانب الشخصي ، مرض أم كلثوم بالغدة الدرقية وسفرها للعلاج بالولايات المتحدة .

وأما الفصل السادس فيحمل عنوان "صوت العرب" ويتضمن الحديث عن التطور الأهم فى حياة أم كلثوم بزواجها من الدكتور حسن الحفناوى طبيب الجلد المصرى المعروف .

وعلى الجانب السياسى جاء القرار الخطير والمدوي للرئيس جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦م ، وما أحدثه هذا القرار من آثار وتداعيات على المستوى الوطني والعربي والعالمي ، وأيضا على الساحة الفنية .

وتناول الفصل السابع بعنوان "الست" لقاء قطبي الغناء أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب فى عمل واحد ، بإيعاز وتشجيع من الرئيس جمال عبد الناصر ؛ حيث تحقق - أخيرا - لقاء السحاب فى الأغنية الشهيرة "أنت عمري" ، وماتبعها من أغانى من تلحين عبد الوهاب بلغت عشراً .

وعلى الجانب السياسي وقعت هزيمة عام ١٩٦٧م بالعدوان الإسرائيلى على مصر إثر قرار عبد الناصر بإغلاق خليج العقبة، وما تبع ذلك من أحداث، وقرار تنحي الرئيس عبد الناصر ثم العودة عنه وإعادة بناء الجيش المصري أثناء فترة حرب الاستنزاف.

وتناول الفصل الثامن وعنوانه "راهبة السلام" جهود أم كلثوم للمساهمة فى المجهود الحربي لرد العدوان على مصر، وجولاتها فى البلاد العربية وفى باريس وبعض العواصم الأجنبية الأخرى وإقامتها حفلات وُجهت عوائدها لإعادة التعبئة وتسليح الجيش وعبور الهزيمة.

وأما الخاتمة فقد رصدت المؤلفة تدهور صحة أم كلثوم ورحيلها، ومشهد جنازتها من ميدان التحرير وسط لوعة الجماهير الباكية الحاشدة التى حادت عن المسار الرسمي الذي حددته السلطات، وحملت الستَّ بعيداً.. بعيداً..

وينتهي الكتاب بالقصيدة التى رثى فيها أحمد رامي أم كلثوم ونشرها بعد عام من رحيلها يقول فى مطلعها:

ماجال فى خاطرى أنى سأرثيها

بعد الذى صفت من أشجى أغانيها

قد كنت اسمعها تشدو فتطربنى

واليوم اسمعنى أبكى وأبكيها.

## هوامش نقدية:

انطوى الكتاب على عدد من الأخطاء فى تواريخ الأحداث والوقائع وفى أسماء وألقاب الأشخاص.

وقد تولت المترجمة تصحيح بعض هذه الأخطاء خلال الحواشي السفلية (Footnotes) للكتاب والتي بلغت ٢٨ حاشية. ولكن بقيت بعض الأخطاء والملاحظات والثغرات التى يلزم التنويه عنها وتصويبها، وصولاً إلى ميزان عادل للتقييم.

وكما أوضحنا الإيجابيات فى عرض الكتاب بالجزء الأول، نرصد فيما يلى عدداً من السلبيات:

١- لم تتعرض المؤلفة للتكوين العلمي، أو التحليل الفنى لصوت أم كلثوم، وسر هذه الموهبة الخارقة وأبعادها، ومصدر عبقريتها ومؤهلها لتلقب بحق بكوكب الشرق، وذلك كما فعل- من قبل- النقاد والمؤرخون الموسيقيون من قبل: د. رتيبة الحفنى، أو كمال النجمى الذى كان يمكن أن تنقل عنه ما جاء فى كتابه "الغناء المصري": عندما نتأمل صوت أم كلثوم يخيل إلينا أنه ينحدر من سلالة أصوات جميلة راقية، عريقة فى الرقى والجمال، اجتمعت فيه أجمل النبرات وأرقها وأقواها، وأمتنها معدناً، وأكملها أوتاراً، وأقدرها على النفاذ إلى قلوب الناس جميعاً.

وقد اتفق الموسيقيون المصريون منذ أن سمعوا أم كلثوم على أن صوتها يمتد على مساحة ديوانين، تبلغ ستة عشر (١٦) مقاماً تقريباً، وهى مساحة واسعة غنية بألوان الجمال الصوتى الباعث على الطرب والدهشة ومن الممكن أن نقيس أبعاده، ولكن سر الجمال والروعة والجاذبية فى هذا الصوت الخالد يبقى بعد ذلك فوق كل تعليل وتفسير؛ فإن جماله وروعته وجاذبيته لاتنبع من ضخامته أو اتساع مساحته أو نفاسة معدنه فقط بل من روح خاصة

تكمن فى أوتاره السماوية ، تحار فيها العقول ، ولكنها شفاء وهدى للقلوب والنفوس والأذواق![1] .

٢- لم تعط المؤلفة لفرسان الكلمة واللحن الذين دعموا مسيرة أم كلثوم الفنية مايستحقونه من الأهمية والمساحة بشكل متوازن يراعى قدر الإلهام ونسبة العطاء لكل منهم فى مجمل إنتاجها الغنائي . ويعد رياض السنباطى أوضح مثال فى هذا السياق . فبالرغم من أنه لحن لأم كلثوم ١٠٣ عملاً تمثل ٣٢,٧ ٪من مجموع أغانيها ، إلا أنه لم يحظ إلا بمساحة قليلة بالنسبة لغيره من الملحنين .

وقد غلبت المؤلفة الحديث عن الجانب الرومانسي العاطفي فى حياتها وبالتحديد مع أحمد رامي ، ومحمد القصبجى على الحديث عن الدور والتأثير والإلهام الفني لكل منها .

٣- ورد فى صفحة ٢٣١ أن أم كلثوم كانت تجلس طويلاً أمام النحات محمود مختار ليضع لها تمثالاً بعد رحلتها إلى تونس حيث غنت " هذه ليلتى ، و الأطلال " . . وهاتين الأغنيتين قدمتا لأول مرة فى عامى ١٩٦٦ م و١٩٦٨ م . .

بينما رحل المثال مختار فى مارس ١٩٣٤م ، والصحيح أن مختار نحت لأم كلثوم تمثالا فى بداية حياتها الفنية عام ١٩٢٤م وليس فى الثمانينيات .

وكلف المثال إبراهيم جابر بصنع تمثال نصفى بالحجم الطبيعي لأم كلثوم فى إبريل عام ١٩٦٤م ، وبعد ذلك بعامين صنع المثال عبد الحميد حمدي تمثالا لها بالمنصورة فى الاحتفال بعيد محافظة الدقهلية .

٤- جاء فى الكتاب أن عبد الناصر - فى حفل عيد العلم - نادي على أم كلثوم وقبلها وطلب منها أن تشارك عبدالوهاب في عمل واحد ، والواقع أن عبدالناصر لم يقبل أم كلثوم عمره! أما هذا الحوار فقد حدث بينهما فى احدى الاحتفالات بعيد الثورة فى نادي الضباط وليس فى عيد العلم !

٥- ذكرت المؤلفة أن أم كلثوم تزوجت لفترة قصيرة عازف الكمان محمود الشريف والواقع أن محمود الشريف الذي تزوجته هو ملحن كبير ولم يكن عازفا للكمان ، ولكن كان فى فرقتها عازفا إسمه محمود الشريف .

٦- لم يكن من اللائق أن تنقل المؤلفة وصف أحد شعراء لبنان لأم كلثوم بقوله : "أم كلثوم هى خاتمة المطربات كما أن محمد خاتم الأنبياء والرسل" فهذه مبالغة غير مقبولة ، بل وتشبيه مجاف للمقدسات ومناف للمعتقدات .

٧- وردت أخطاء فى الأسماء ، ربما يرجع سببها إلى الترجمة من الفرنسية إلى العربية . مثال ذلك اسم قائد ضباط الفالوجا الفهد الأسود (سعيد طه) والصحيح (السيد طه) ، ووزير الحربية (عداس باشا) ، والصحيح (حيدر باشا) .

٨- أقحمت المؤلفة أو اختلقت شخصية غريبة جعلتها تلازم مسيرة أم كلثوم الفنية ؛ هى شخصية العامل البسيط (أحمد الفحام) الذي عشق صوت أم كلثوم وتعلق بها لدرجة الجنون . . وكان مستعداً أن يعطيها عينيه وكليته عندما مرضت . . وبقى متابعاً لها فى كل حفلاتها ومراحل حياتها الفنية . . والغريب أن هذه الشخصية لم يرد لها ذكر فى أى من الكتب التى تناولت سيرة أم كلثوم ، ومع ذلك فقد أعطته المؤلفة مساحة كبيرة من الكتاب تربو على المساحة التى شغلها أى من الشخصيات الفنية أى التي لعبت دوراً محورياً فى حياة أم كلثوم .

(١) كمال النجمى . الغناء المصري ؛ مطربون ومستمعون . - القاهرة : دار الهلال ، ١٩٧٠ ص ١٣٤ .